الرومانتيسم

Romantisme

— ٢ —

وقبل أن نذكر قصة « كلاريس هارلو » الروائي الانكليزي و« ريشاردسون » — خالق القصة الانكليزية الحديثة — وقصة « فرتر » للشاعر الالماني « جوته » يجب ان نعلم أنه ألفت في فرنسا اثناء القرن الثامن عشر قصص كان اغلبها بلا قيمة فنية وتنوسيت على عجل. الا انها تشهد بتبدل صورة الحياة عما كانت عليه في القرن السابع عشر . تغيرت الحياة وصورتها في القصص . فان التحليل وقرع الحجة بالحجة ليس سوى « الاصغاء الى صوت القلب » و « تذوق حلاوة العاطفة » والاحساس « بشعور قلبي عنيف ورقيق معا » وافراز « سم الشهوات التي تلتهم » او « حلاوة بأسائها » او البحث عن « ملاذ في الآلام التي لاتكاد تخلو من حلاوة . والاستسلام الى كآبة الملاذ الوحشية ولواعج العاطفة اليائسة وتوخي الراحة في المحال . كذلك كانت طريقة « جريسين » (١٧٤٥) والاب بريفو (١٧٣٥) فقد كان ابطال رواياتهما يكابدون مرضا روحيا عضالا بلا سبب ولا علاج تأصلت في نفوسهم الكآبة والحزن والحاجة الملتهبة وغيوب شيء حسن غير معروف ، وأحسوا الفراغ واليأس ولم يتحولوا من الضجر الا الى الاسف وملل الحياة

في تلك القصص يبطل حب الطبيعة الهادئة المنسقة . وانما تحب الطبيعة الوحشية بما توحيه من اهواء وما تبديه من مستغربات . وكان التروض في الطبيعة عادة شائعة في القرن الثامن عشر . وكان المتروضون كثيراً ما يلذهم الهواء الطلق في باديء الامر. وانما كانت تلذهم على الاخص التأملات الشعرية

ذات التأثير . كانوا يتذوقون التأمل في ضوء القمر وصوت البوق في جوف الغابة والدوحات الباسقة والمستنقعات والدمن .

وكانت « مودون » و « مونمورانسي » و « فونتنبلو » ملجأ للعشاق وملاذ للقلوب التى خابت آمالها وانتابها اليأس . وابتدأ الجيل يعرف حياة اخرى غير حياة « الصالونات » وصار الكثير من ذوى النفوس العظيمة يلجؤون الى الطبيعة للحصول على ارشادات فى الحياة ؛ وقوى تعين على الالم وملاذ ينسون فيه همومهم . وحسبنا ان نستدل علي ذلك من رسائل مدموازيل « ليسبيناس » و « مدام اوديتو » او الكونتسه دى سابران .

وسرعان ماضاقت وديان فرنسا وريفها وطبيعتها عن ان تسع المتروضين . فجعل البعض ينشد فى سويسرا وفي الجبال تأثيرات اقوي واشد سيطرة وإمتاعا للنفس . وفى سنة ١٧٥٠ صدرت اشعار عن سويسرا للشاعر «ألر» « جبال الالب » — تذوقها جمهور المتأدبين بلذة . وقد لفتت الانظار الى مشاهد جليلة مجهولة . فابتدؤوا ببحيرات جنيف و « برين » و « تون » ومصاعد الجبال المتوسطة . ثم ترقوا الى وديان الثلج . الثلج الابدى فى سويسرا . وذهبوا ينشدون اجل بواعث الحماسه فى الطبيعة . الطبيعة التى تعجز بلاغة الالفاظ عن وصفها . وإن ألحان الكنائس لتبدوا اصواتا صماء الى جانب خرير المياه المنحدر من الجبال .

واثرت تلك المناظر الطبيعية فى الفرنسيين تأثيرا افضى الى الاستعانة بالصنعة على تبديل المناظر الريفية فى بلادهم . وعلى الاخص الحدائق والبساتين . فان اصحاب القصور الريفية والرياض قرروا ان يغيروا الاطار الذى يحيط بقصورهم وان يبدلوا مناظر حدائقهم ونظام تنسيقها . وقد عنى المصوران « واتو » و « لانكريه » باظهار ذلك التطور فى الواحهما . ومن بعد سنة ١٧٥٠ شاع الاعجاب بالصخور الهائلة والسيول المزبدة والزوابع والامواج الثائرة وحوادث الغرق وكل ماهو جليل مروع . واعرب المصور « جوزيف فرنيه » فى لوحاته عن ذلك الذوق الذي شاع فى عصره . وكان الكثير من

النبلاء والسراة يوصونه بتصوير « زوبعه دائلة » او « سيل ماء مزبد عرم ينحدر من الصخور وبين الاشجار فى غابة موحشة عذراء » . وذلك كان ذوق الجيل الفرنسي الذي خص بحبه سويسرا وثلوجها وجبالها وبحيراتها .

وترقت مودة الحدائق الانكليزية ذات المماشي الغريبة التنسيق . وتحكم الخيال والهوى والنظام الشتيت فى كل شيء . وخلق كل ما يمكن ان يفتن الارواح الرقيقة والمشاعر اللينة ويغذى الخيال

وتطور الشعور بما يؤثر تأثيراً وديعا ليناً كالمناظر الريفية والرعاة والاكواخ واصطبلات الالبان والابقار السمان الوئيدة المشي . والخراف ذات العجيج — على مثال التصاوير التي زينت بها « اقاصيص » جسنر وحكايات الرعاة للشاعر « فلوريان » — تطور الشعور الى المناحي الاسيفة الكئيبة فى الطبيعة. الانحاء المقفرة والصخور الممدودة المتراصة. والجوانب المنفردة من الحديقة التى يحلو فيها الحلم والاديرة والقناطر المهجورة التى تسكنها الارواح والكهوف التى وصفها « يونج » وهى تلك المناظر التى توحى بشعر الماضي وتسمو بالارواح الى اجل التأملات . هذا الى القصور العتيقة والكنائس المهدمة وقبور العاشقين والغابات الساحرة . وبالاختصار اشتملت الحدائق على كل ما هو ممتع ومنعزل ووحشي ورقيق واسيف وريفى بل على البحيرات ومناظر الخريف . والانفراد التى وصفها « لامارتين » فى « تأملاته » . ولم يكن ينقص العصر وقتئذ غير منشدين مجيدين غير « فونري » وغير « كولاردو » .

الرجوع الى العصور الوسطى

فى الوقت الذى ترقى فيه الميل الى الطبيعة الوحشية او المنسقة المزدانة بالدمن والآثار القديمة ، ترقى الميل الى العصور الوسطى والى آثار فرنسا الوطنية . ويرجع الفضل الى الكونت دى تريسان الذى اخرج سنة ١٧٨٢ كتاب « منتخبات من قصص الفروسية » فى الميل الى جماعة المنشدين الافاقين « تروبادور » والآداب النظرية القديمة « الجولواز » . وصار ذلك

مودة شائعة . فاعادت قصص وقصائد « الزمان السالف الطيب » الى النفوس الرقيقة بلطفها وبساطتها وظرف اللغة القديمة . وتعددت التآليف والملخصات في الادب السالف واقاصيص الفروسية الماضية . واعيد نشر اشعار « فيلون » و « شارل دولريان » (١٧٢٣ — ١٧٣٤) وديوان « مارو » الذين لم ينس قط . ولم تعد الاشعار والاقاصيص تخلو من حوادث الفروسية وميادين البراز وحكايات العشق القديم الخ .

ولشد ما كانت التأثيرات الاجنبية في تلك الحركة التي مهدت للرومانتيسم في فرنسا وعلى الاخص تأثير انكلترا . فقد صدرت من هذا البلد الاخير قبل سنة ١٧٦٠ عن طريق « فولتير » و« مونتسكيو » نظريات الحرية السياسية والحكم الدستورى . الا ان « اولباخ » و « هلفتيوس » وجماعة الانسكلوبيديين لم يلبثوا ان تجاوزوا حدود النظريات التي وضعها « اديسون » و « بوب » ومن بعد سنة ١٧٦٠ اضمحل تأثير الفلسفة ومبادىء الحرية الانكليزية .

ولم تكن انكلترا في الجزء الثاني من ذلك القرن سوي موطن « فيلدنج » و « ريشاردسون » و « يونج » و« اوسيان » والاولان على الاخص استحوذا بتأثيرهما على الارواح الرقيقة الشعور . ولما كتب « ديدرو » في حماسة وافتتان جم تقريظه لريشاردسون اعرب ببلاغة عن رأى جميع الفرنسيين في ذلك الروائي المجدد .

وتذوق الفرنسيون المسرح الانكليزى بمثل الرغبة التي تذوق بها القصص الانكليزية . على ان شكسبير حين عرف في فرنسا صار موضوع جدل ونقد وقد وصفه فولتير بالمعتوه . وشاركه هذا الرأى تقريبا « ريفارول » و« لاهارب » . وكان الممثل « جاريك » وقتئذ مشهورا في اوروبا . فجعل يمثل امام الفرنسيين منذ سنة ١٧٥١ مقطوعات من « هملت » في الصالونات فابكى النظارة لحالة عاشق « فيرون » والملك اير « الضال في جوف الغابة » و « قلب اوفيليا الكسير » . فلم تلبث الترجمات عن شكسبير ان تعددت

وشاعت محاكاته وتقليد طريقته . وذاع في الملأ الفرنسى صيت « روميو وجوليت » و « عطيل » .

وبذيوع درامات شكسبير كان غزو الروح الانكليزية للروح الفرنسية . والاولى قاتمة وحشية مليئة بالضباب والخفاء ؛ ولكنها عميقة وتعرف كيف تطلع على ما يحرك الخيال ويلقى بالنفس فى موجة عميقة من التأثير والهول .

ومن قبل ذلك كان بعض الفرنسيين قد هوى الهدوء الجليل الذى يسود القبور والاموات . غير أنه لم يتغن به الا بما ينم عن التردد والاحجام او بما يدل على الخرق . وينسب الى « هارفى » و « جراى » وعلى الاخص « يونج » — من شعراء الانكليز — الفضل فى اشتمال ذلك النوع من الشعر — شعر القبور — على اليأس الذي لا رجاء بعده والمسرات الاسيفة للقلب الذى هجره الكل .

اما « ليالى » الشاعر « يونج » فانها تأملات خطابية ومحاورة مشحونة بالتعابير البيانية والنميقة المصطنعة . وقد نالت نجاحا عظيما لما ترجمها « ليتورنور » سنة ١٧٦٩ بنثر غير بليغ ؛ ولكنه كان أشد اصطباغا بالحزن والاسى من الاشعار الاصلية . ولقد حسب البعض ان « يونج » روى قصة حياته . وقد اذرف الدموع على ذلك الاب الذى حفر بيديه فى الليل البهيم تحت ضوء مصباح ضئيل قبر فتاته المحبوبة .

وبفضل تلك التأثيرات الاجنبية وبالرغم من سخريات « فولتير » كان نشوء « النوع الحزين » في الادب بالتدريج . ومنذ ذلك الوقت امتلأت أقاصيص « دورا » و « كولاردو » وروايات « باكولار » و« أرنو » و« لوى مرسيين » بالعواصف والقبور والجماجم وهياكل الموتى والفضاء المملوء بالعناصر الثائرة والجرائم والعذاب الناشيء عن تبكيت الضمير .

وكان لا بد لذلك النوع الحزين فى الأدب من إطار يلائمه . وقد خلقه « مكفرسون » . فان أشعار « أوسيان » اشتملت على أجواء الشمال وآلهته والضباب والثلوج والزوابع التى تختلط باصواتها أصوات السيول والرياح

والارواح الثائرة . وفى « أوسيان » يتجلى كل ما اشتمل عليه أدب الشمال من مرثيات حزينة وجليلة ومروعة . ويجب أن نشير هنا الى أنه لم يكن فى ذلك العصر تمييز بين « إيقوسيا » و « الجول » و « إرلندا » و « الدانمرك » و « النرويج » بين بلاد الصلت والبلاد الجرمانية . وانما كان الاعجاب عاماً شاملا بالكل دون استثناء .

ولم يكن ذلك الاعجاب والفرح بالآداب الاجنبية شذوذاً عن سبيل الحكمة . فان الميل الى ما هو أسيف حزين لم يسلم من الجدل والنقد حتى عصر الثورة .

وفي الحق أن شكسبير ويونج واوسيان وسائر الانكليز والصلت والسكنديناف قد أثروا فى فرنسا بأشد من تأثيرهم فى البلاد الجرمانية .

التأثير الالمانى

ظاهر أن تأثير الادب الالمانى الذى كانت حركته الرومانتيكية مبكرة ، استشعر فى فرنسا على عجل . هذا فى الظاهر ، ولكن الحقيقة التاريخية تخالف ذلك . فقد كانت المانيا بوجه عام مجهولة أو مكروهة قبل سنة ١٧٦٠ . كانت فى نظر أغلب الفرنسيين موطن « كانديد » وقصر « توندر ـ تانترونك » والمستنقعات النتنة والبارونات البلداوات والنساء السمان الساذجات . وكان رأى فولتير فيهم أنهم فلاحون أتحاح . وقد عرفهم فولتير وكانت لديه الاسباب الكافية للتأفف منهم . الا أن ذلك البلد ما لبث أن أخرج عدداً من الرجال العظماء . وسرعان ما اطلع الفرنسيون على تآليف « فيلاند » التي أدت اليهم ما أعاروه هم للالمان . ثم كان اتصالهم بأفكار « كلو بستوك » وديوان « مسياد » وعرفوا « جيلر » و « هاجيدون » . واذ ذاك علموا ان الالمان ليسوا فلاحين بالدرجة التي وصفها بهم « فولتير » . وانما سلموا بأنهم « سذج » وهم الى ذلك أقوياء الشعور وفضلاء . فجعلوا يتذوقون السذاجة الالمانية والهدوء فى القرى التى تظللها أشجار الزيزفون وقباب الاجراس .

ثم كانت نهاية القرن حيث أظهر « شيلر » و « جوته » للعالم موطنا المانيا آخر أشد حرارة وأكثر رومانتيكية . فنقلت الى الفرنسية رواية « قطاع الطرق » — لشيلر — و « فرتر » لجوته فكانتا موضع إعجاب عظيم

وتوالت الترجمات والاقتباسات من سنة ١٧٧٥ الى سنة ١٧٩٥ فصدرت عشرون قصة انتهى فيها الحب بالانتحار ـ على طريقة فرتر ـ أو ختم على الأقل باليأس التام من الحياة . وصارت الفتيات ترغب فى الاطلاع على « فرتر » وتتأثر بها . فشاعت « النوراستانيا » وصارت مودة بين الفتيان والفتيات . وصار البعض ينتحر قنوطا من الحياة ، كذلك الشاب الذى طعن صدره بخنجر فى « ارمونفيل » أمام قبر روسو .

جان جاك روسو

وليس يكفى التأثير الانكليزى والالمانى وتأثير العصور الوسطى لتفسير الرومانتيسم الفرنسى . فهناك تأثير آخر يفضلهما . تأثير عبقرية فذة أضافت إليهما كنوز شخصيتها القوية وساقت آدابنا بقوة فى سبل جديدة . تلك هى عبقرية جان جاك روسو .

لم يستكشف روسو أدب الشمال . فقد عرف من قبله . ولكن عود الفرنسيين أكثر من سواه على أن يتذوقوا ويشعروا بما فى طريقة الالمان والفرنسيين من جمال ، فوسع بذلك مجال التصور والخيال الذى كان محدوداً .

وطبع الآداب الفرنسية على الاخص بطابع مزاجه الغريب . وبذلك أحدث وحده انقلاباً . فاعاد سيطرة العاطفة فى الادب . وكانت قد اضمحلت منذ نصف قرن وحل محلها الذكاء . وبتآليفه صارت الآداب ظلالا لما يحسه القلب . الآداب التى لم تكن من قبله الأعرة للفكر وحده . وبالاجمال جعل روسو للعواطف القلبية الكفة الراجحة فى الشعر والبلاغة والليريسم . وهو اتساع هام حداً فى أفق الادب .

ولما كان روسو ابن أحد اتباع كلفن من جنيف وتربى خارج التأثيرات الملكية والكاثوليكية ، فقد اعتقد فطرة بالحرية والمساواة الطبيعيتين . ولما كان ذا خلق استقلالي لايخضع لاى قيد أو نظام وعدو لكل تقليد فان ذاتيته كانت مفرطة . وظل في ثورة دائمة ضد المجتمع في عصره فهدم جميع الحواجز التى تعترض شخصيته أى تعترض لفظة « أنا » التى جعلها ديناً فى الادب . وقد دافع عن ذلك الدين الذي يرمز اليه «بأنا» مقدار ما كان مزاجه الحاد يتطلب من حرية ومن استمتاع .

فبسط جناحى تفكيره ونظره على جميع الاشياء التى تحيط به وتناول بطريقته الذاتية الطبيعة المادية والادبية وكان هو نفسه مادة كتاباته وغايتها وما روته قصته « هيلوئيز الجديدة » عام ١٧٦٠ وكتابه « اميل » عام ١٧٦٢ و « اعترافاته » و « احلامه » عام ١٧٨٢ لايخرج من المأساة الداخلية لشخصه التى تعتلج بين محيط من شهواته وحججه ومحاولاته وافكاره واحلامه وتجاربه . وهو ابداً مستعبد للعاطفة التى تواتيه بسرعة البرق . والعقل عنده هو الخادم المطيع للاحساس لانه خاضع لشعوره الى حد نادر . وقد تميز بذلك عن جميع معاصريه . قال الناقد لانسون « كان وسط الذين يهتمون بالتفكير يهتم بالاستمتاع وبالتألم ... وقد وصل غيره بالتحليل الى الفكرة المستخلصة من العاطفة . ولكن روسو بمزاجه كان مستحوذاً على حقيقة العاطفة . واولئك قد كتبوا ، ولكنه عاش »

وطبيعى ان تقوده شخصيته الى الليريسم ، وببلاغة ذلك الليريسم اشترك روسو فى الانقلاب الادبى . وقد هز العالم القديم وهدمه . وبرهن على انه محال وعبث . ذلك الكاتب الذى كان موسيقيا بل ذلك الفيلسوف الذى كان شاعراً . ذلك الحوارى الذي كان شاعراً قد سيطر على الافكار بقوة - ذلك لانه استملى من عواطفه ورغباته القوية . وكانت افكاره تشبه ان تكون ممتزجة بحساسيته وشهواته .

ومن اجل ذلك كله يعد بحق ابا الرومانتيسم . وكل مايفيض من تأليف

شاتوبريان ولامارتين انما هو منه ولم يتجاوز مجهود « ديموسيه » غير ترجمة روسو في اناته .

ولم يفتح روسو معين الدموع لاغير . بل لقد علم الفرنسيون فى القرن الثامن عشر ان يحسنوا النظر الى الطبيعة . وعلمهم ان يروا المناظر الريفية بمرائيها وحوادثها وصفاتها وان يشعروا بعواطفهم وان يجعلوا لها اطاراً ومنذ ذلك الوقت صار لمأساة الحياة الانسانية اطارها وذلك من خير استكشافات الشعور الليريكى .

وقد صور في كتاباته الذاتية البيوت الريفية بابقارها واصطبلاتها وحياتها الضجوجة المفرحة وديوكها التى تصيح وثيرانها التى تخور

وصور لمعاصرية ببلاغة جمال مطلع الشمس وهدوء ليالى الصيف ، ولذة الاستمتاع بالريف ، وسر الغابات الصامتة ، وكل تلك المناظر التى يمرح فيها البصر ويمتع . وهى مناظر رآها وعاش فيها . وقد صورها بوضوح فنان عاشق للطبيعة .

واطلع الفرنسيون على مدنيات سويسرا والالب والوديان العميقة والجبال الشامخة . وقد كان نجاح « هيلوئيز الجديدة » نجاحا لبحيرة جنيف . فتهافت الفرنسيون على تلك البحيرة ينشدون آثار « جولى » و« سان برو » وتتبعوا آثار روسو نفسه فى الانحاء السويسرية

وكان ممن ساروا على طريقة روسوا من الشعراء والكتاب « سان لامبر » صاحب كتاب « الفصول» وروشيه و « دليل » صاحب «الحدائق» « ورجل الحقل » و « برناردان دي سان بيير » الذي كان من عباد الحياة فى الطبيعة وهو صاحب « الكوخ الهندى » و « بولص ومزجيين و « الحان الطبيعة » الا ان عواقب الحركة الفكرية التى قام بها روسو لم تظهر الا بعد اربعين سنة . اذ صدحت موسيقى الرومانتيسم في فرنسا . ولقد حكم روسو النظرى مع روبسبيير ولكن روسو الموسيقى لم يغن فى عهد المقصلة « الجيليوتن » ونريد ان نقول انه حدث وقت تراخ وخمول فى حركة التجديد الادبية ابان الثورة .

عمر الحمير سالم